سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

اتَّقِ الله : دُمْ على تقواه أو ازدد منها .

وَكِيلاً : حافظاً مفوضاً إليه كل أمر .

لقد كان رسول الإسلام - ﷺ - داعياً إلى الحق الخالص .. وإن مَنْ ينهض داعياً إلى الحق الخالص في هذه الدنيا ، تواجهه ظروف قاسية وأوضاع مثبطة للغاية .. حيث إنه يعود "غريباً" في مجتمعه بكل معنى الكلمة ، فالناس من حوله بين محبٍ للدنيا لا يروقه دين الداعي القائم أساساً على حب الآخرة ، وبين نفعيّ مساير لتيار العصر تتعارض مصالحه مع ما يدعو إليه الداعي من التجرد والإخلاص الكامل للحق وحده .. ومنهم مَنْ يكون قد أحال الدين "ملحقاً" بمذهبه القومي ، بينما يطالب الداعي بإقامة الدين على أساسٍ من العبودية الإلهية المحضة .

وفي هذه الحالة لو أن الداعي خضع واستسلم لضغوط البيئة ، لوجد في الناس كثيراً من الأعوان والأنصار يلتفون حوله ويقفون إلى جانبه . أما لو أنه ثبت على الحق الخالص ، لم يترك من دون الله ناصراً ولا معيناً ، وليس للداعي ، بأي حالٍ من الأحوال، أن يختار الطريق الأول: طريق الاستسلام والمداهنة. وإنما يتعين عليه أن يثبت على الحق الخالص معتمداً على الله ، واثقاً من أنه تعالى حكيم وعليم ، سينصر

عبده بكل تأكيدٍ ، ولن يخذله أبداً !!

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ : تحرمونهن كحرمة أمهاتكم .

أَدْعِيَاءَكُمْ : من تتبنونهم من أبناء غيركم .

أَقْسَطُ : أعدل .

وَمَوَالِيكُمْ : أولياؤكم في الدين .

إن عدم امتلاك المرء لقلبين اثنين في جوفه ، مما يدل على أن التناقض الفكري لا يتفق وشروع الله التكويني . ولئن كان الإنسان قد مُنح قلباً واحداً ؛ فإن فكره هو الآخر ينبغي أن يكون واحداً ليس غير ، فمن المستحيل أن يكون قلب واحد ملتقى نقيضين في آنٍ واحدٍ : بأن يجمع بين الإخلاص والنفاق ، وبين عبادة الله ، وعبادة الدنيا ، وبين العدل والظلم ، وبين الكبر والتواضع .. إلخ .

إذْ المرء لا يسعه إلا أن يكون إلى أحد الجانبين ، وينبغي عليه بالأحرى أن يكون كذلك !!

هذا أمر مبدئي ، تندرج تحته بعض التقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي مثل : الظهار والتبني،فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته :

"أنت عليّ كظهر أمي" طُلقت منه،وصارت محرمة عليه إلى الأبد كما تكون الأم محرمةً على ابنها،وسُمي هذا ظهاراً. وهكذا كان اعتقادهم في الولد المتبنيّ أنه يصير كابن الرجل من صلبه ، وكانوا بالتالي يُجرون عليه أحكام الابن الحقيقي نفسها. وقد أبطل القرآن الكريم هذه العادة الخرافية من الأساس ، وأعلن صراحةً : أنه لما يتنافى تماماً مع النظام التكويني الفطري أن تصبح الزوجة - المظاهر منها - كالأم الحقيقية،أو يمسي المتبني كالابن الصُلبي سواء بسواء .

وإن الله سبحانه ليعفو عن الأخطاء ما دامت هي صادرةً عن جهالةٍ وعدم العلم . أما لو أصر المرء على مسلكه الخاطئ ، حتى بالرغم من بيان حقيقة الأمر له على نحوٍ واضحٍ جليٍ ، فإنه لا يعود بعدئذٍ جديراً بعفو الله وغفرانه !

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٦ ﴾

أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ : أرأف بهم ، وأنفع لهم .

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ : مثلهن في تحريم نكاحهن وتعظيم حرمتهن .

وَأُوْلُو الأَرْحَامِ : ذوو القرابات .

إن النبي في حياته شخصياً ، وبعد وفاته مبدئياً ، أحق بأهل الإيمان حتى من أنفسهم . فأمره ينبغي أن يكون مقدماً على كل أمرٍ ، وحبه يجب أن يفوق كل حبٍ؛ ذلك لأن النبي يكون مندوب الله في هذه الدنيا ، ولكي تترسخ عظمة تعاليمه في النفوس ، لابد من أن يكون وجوده مقدساً في أنظار الناس ، حتى تعتبر أزواجه بدورهن بمثابة أمهاتهم في التوقير والاحترام وحرمة النكاح.

وأما بقية أفراد الأمة ، بعد النبي وأزواجه الطاهرات ، فإن أساس علاقات التوارث وتقاضي الحقوق فيما بينهم أخذا وعطاءً ، يقوم على القرابة الرحمية (النسبية) انطلاقاً من الأدنى فالأدنى . وقد يمكن ، بسبب بعض الضرورات الدينية الطارئة ، إقامة شركة مؤقتةٍ في الحقوق مع غير ذوي الأرحام ، كما حدث في أول العهد المدني في أعقاب الهجرة النبوية من المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، على أن ذوي الأرحام والقرابات النسبية هم الأولى ، والأحق بعضهم ببعض من حيث التنظيم الاجتماعي العتيد ، وسيظلون كذلك على الدوام!

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

مِيثَاقَهُمْ : العهد على الوفاء بما حملوا .

مِّيثَاقاً غَلِيظاً : عهدا قويا على الوفاء .

إن المشروع الذي خلق الله الإنسان بمقتضاه هو الامتحان ، أي إسكانه في بيئةٍ حرةٍ مع تزويده بكل أسباب الحياة في العالم الراهن ، ثم مجازاة كل إنسان بما صنع ، إن خيراً فنعيم أبدي ، وإن شراً فعذاب أبدي.

ونوعية الحياة الامتحانية هذه تقتضي بالضرورة أن يتم إعلام الإنسان بالوضع الحقيقي على أكمل وجهٍ ، ولهذا الغرض ذاته أجرى الله سبحانه وتعالى سلسلة النبوة والرسالة . وليست النبوة إعلاناً بواسطة مكبر الصوت ، بل إنها مهمة باهظة التكاليف تتطلب غاية الصبر . ومن ثم أخذ من كل الأنبياء والمرسلين هذا الميثاق المؤكد الغليظ بأنهم سيقومون بأداء مهمة تبليغ الرسالة الخطيرة هذه مع رعاية جميع شروطها وآدابها،

ولن يدخروا أي جهدٍ في سبيل الوفاء بمقتضياتها أبداً !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ : الأحزاب يوم الخندق سنة خمس .

زَاغَتِ الأَبْصَارُ : مالت عن سننها حيرة ودهشة .

وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ : نهايات الحلاقيم (تمثيل لشدة الخوف) .

ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ : اختبروا بالشدائد ومحصوا .

وَزُلْزِلُوا : اضطربوا كثيرا من شدة الفزع .

كانت غزوة الأحزاب (عام ٥ من الهجرة) غارةً مشتركةً من قبائل العرب واليهود على المدينة، وكان عدد المغيرين فيها زهاء اثني عشر ألفاً ، ولم يكن المسلمون قادرين على الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة، بيد أن الله تعالى أدخل إلى قلوب الأعداء -بتدابيره الخاصة - رعباً جعلهم ينصرفون بأنفسهم عن أطراف المدينة بعد حصارهم إياها قريباً من شهرٍ ، وإن مثل هذه الأحوال الشديدة إنما تواجه الدعوة الإسلامية لكي تميز المخلص من جماعة المسلمين من غير المخلص ، وثانياً : لتعلم القُوَى المعادية أن الله يتولى بنفسه حماية دينه، وأنه لن يدعه يُقهر ويُغلب على أمره أبداً !

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ

ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

غُرُوراً : قولا باطلاً . أو خداعا .

يَثْرِبَ: اسم المدينة المنورة قديماً .

لاَ مُقَامَ لَكُمْ : لا إقامة لكم ههنا .

إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ : قاصية يُخشى عليها العدو .

فِرَاراً : هربا من القتال مع المؤمنين .

مِنْ أَقْطَارِهَا : نواحيها وجوانبها .

سُئِلُوا الفِتْنَةَ : طلب منهم مقاتلة المسلمين .

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا : ما أخروا المقاتلة .

يَعْصِمُكُم مِّنَ الله : يمنعكم من قدرة الله تعالى .

طارت نفوس المنافقين شعاعاً لما عرفوا مبلغ الخطر المحدق في غزوة الأحزاب .. وراحوا يبحثون عن المهارب للفرار بأنفسهم ، وأما أهل الإيمان الصادقون فقد ظلوا صامدين اعتماداً على الله ؛ لكونهم يعلمون جيداً أنه ليس أمامهم سوى الله ، وليس وراءهم سوى الله كذلك ، إذاً ، فالفرار من خطر أعداء الإسلام تعريض للنفس لبطش الله الذي عذابه أشد وعاقبته

أوخم .. وقد كانت أفئدتهم مشحونة بيقين يؤكد لهم: إننا لو ثبتنا في مواجهة العدو، لجاءنا نصر من الله وفتح قريب ، أما لو فررنا هاربين من جبهة الدفاع عن حمى الإسلام ، فإننا لن نستطيع إنقاذ أنفسنا آخر الأمر من الخزي والدمار حتى في هذه الدنيا، فضلاً عما سنلقاه في الآخرة من عقاب الله الشديد!

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المُعَوِّقِينَ مِنكُمْ : المثبطين منكم عن الرسول ﷺ .

هَلُمَّ إِلَيْنَا : أقبلوا أو قربوا أنفسكم إلينا .

البَأْسَ : الحرب والقتال .

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ : بخلاء عليكم بكل ما ينفعكم .

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ : تصيبه الغشية من سكراته.

سَلَقُوكُم : آذوكم ورموكم .

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ : ذربة سليطة قاطعة كالحديد .

أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ : بخلاء حريصين على المال والغنيمة .

فَأَحْبَطَ الله : فأبطل الله .

بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ : كانوا معهم في البادية .

هناك رجل لو تخلف أو تهاون يوماً في الاستجابة لداعي الفداء والتضحية، لاعتراه ندم يعقد لسانه ، وآخر لا يتقدم للفداء والتضحية حين يُدعى إليها فحسب، بل يسعى لصدّ الآخرين عنها كذلك ، إن هذا إضافة التمرد إلى جانب التهاون ، وقد يمكن أن يقابل التهاون بالعفو ، ولكن التمرد غير جدير بالعفو البتة .

والذين تنطوي نفوسهم على التمرد والعناد ، لا قيمة لأعمالهم ولا يقام لها وزن .. حتى لو كانت صالحةً طيبةً في ظاهر الأمر ، فإن روح العمل الأصيل هو الإخلاص ، وهو الذي تخلو منه قلوب القوم كل الخلو .

وعدم التضحية للدين يكون دوْماً نتيجة حب الدنيا ؛ فالمرء يفقد دينه من أجل الحفاظ على دنياه ؛ ومن ثم فحيثما يجد أمثال هذا أن الدين قد اقترنت به بعض الفوائد الدنيوية أيضاً ، فإنهم يلجؤون هناك إلى استخدام مهاراتهم الكلامية ، لكي يتمكنوا من الحصول على أوفر قسطٍ من المغانم إيهاماً للمؤمنين بأن صلتهم بالدين لا تقل عن أحدهم متانةً بل تزيد ، وغيرتهم عليه مثل غيرتهم بل أشد ، وأما حيث يكون معنى الدين هو التضحية فلا يشعرون هناك بحاجةٍ أو رغبةٍ ما في إظهار التدين !

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ : قدوة صالحة في كل الأمور .

قَضَى نَحْبَهُ : وفي بنذره . أو مات شهيدا .

إن حياة الرسول وأصحابه تمثل نموذجاً دائماً للحياة العابدة لله يحتذي به أهل الإيمان إلى يوم القيامة .. إنها نموذج نتبين من خلاله ماذا يعني رجاء الله واليوم الآخر، وما معنى ذكر الله كثيراً ، وما الصمود في وجه المآزق الحرجة والظروف الصعبة، وكيف تكون الثقة في مواعيد الله، وما الإيمان الذي ينمو ويتجدد دائماً ، وكيف السبيل إلى الفوز به .. وما أسلوب الوفاء بالعهد الذي يعاهد المؤمن عليه ربه ؟!

ولقد قدّم الرسول وأصحابه أرفع نموذج عملي لهذه المعاني كلها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا في أحلك الظروف وأحرج الساعات . وقد أقاموا الدليل الباهر على الفكر الإسلامي والخلق الإسلامي في كل الشؤون والقضايا التي عالجوها أفراداً وجماعاتٍ .. وكانوا متمسكين بالحق قبل أن يمتحنوا ، كما ظلوا ثابتين على جادة الحق حتى في أثناء المحنة وبعدها ، لم يحيدوا عنها قيد شعرةٍ.

ثم إن حياة الرسول وأصحابه هي أيضاً النموذج الحي لحقيقة أن مصير فردٍ أو جماعةٍ ما لا يتقرر عند الله بدون امتحان ، فقد جرت سنة الله بخلق الظروف القاسية والأزمات لكي يتميز المؤمنون الصادقون من المدّعين الكاذبين ، ولم يكن في هذه السنة الإلهية أي استثناء من قبل ، ولن يكون هناك أي استثناء فيها .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم : يهود قريظة الذين عاونوا الأحزاب .

صَيَاصِيهِمْ : حصونهم ومعاقلهم .

الرُّعْبَ : الخوف الشديد .

كانت الظروف في غزوة الخندق (الأحزاب) قد بلغت منتهى الشدة ، ولكن لم تندلع هناك نار الحرب الفعلية بين الفريقين ، حيث كفى الله المؤمنين القتال بأن أرسل ريحاً عاصفةً هوجاء وجنوداً من الملائكة ملأت قلوب الأعداء ذعراً ويأساً دفعهم إلى الانسحاب والعودة على أدراجهم . وقد كان ليهود المدينة (بني قريظة) مع المسلمين عهد الموادعة ، ولكنهم غدروا في تلك الساعة الحرجة ، فنقضوا العهد وانضموا إلى صفوف المشركين .

فلما انصرفت حشود المهاجمين عن المدينة ، زحف رسول الله - ﷺ - بأمرٍ من الله على مستوطنات بني قريظة ، حيث ضرب المسلمون حصاراً مشدوداً حول حصونهم وقلاعهم ، وظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلةً ، إلى أن تم تحكيم سعد بن معاذ بناء على طلب سادة بني قريظة أنفسهم ، وقد حكم سعد بن معاذ فيهم ما هو مقرر في شريعة التوراة نفسها للمجرمين أمثالهم ، أي أن يقتل شبانهم ، وتسبى نساؤهم وأطفالهم ، وتصادر أموالهم وعقاراتهم !! [1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) انظر : سفر التثنية ٢٠ : ١٠ - ١٤ .

openkandil.com

أُمَتِّعْكُنَّ : أعطيكن متعة الطلاق .

وَأُسَرِّحْكُنَّ : أطلقكن.

سَرَاحاً جَمِيلاً : طلاقا حسنا لا ضرار فيه .

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ :بمعصية كبيرة ظاهرة القبح .

تعطلت أنشطة المسلمين التجارية بسبب الهجرة ، هذا إلى جانب أنهم دخلوا في سلسلة حروبٍ متصلةٍ أضرمها أعداء الإسلام ، وترتب على ذلك أن بلغت حالة المسلمين الاقتصادية منتهى السوء والتردي ، وقد انعكست آثار ذلك على بيت الرسول - ﷺ - في أسوأ مظاهرها، حيث صار من المتعذر عليه حتى القيام بتوفير الحاجيّات الأساسية اللازمة لأهله .. إلى أن بدأت أزواجه - عليه الصلاة والسلام - في مطالبته بالزيادة في نفقاتهن .

إن الأزواج المطهرات لم يطالبن إلا بالنفقة الضرورية، ولكن الله سبحانه عبر عنها بزينة الحياة الدنيا ، وهذا في الحقيقة شدة في الإظهار ،كما أن كلمة "الفاحشة" هي الأخرى إنما جاءت هنا للغرض نفسه ، فقد كان رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم- مكلفاً بتكميل أعظم رسالةٍ في التاريخ البشري، ألا وهي القضاء على عصر الشرك ، وتأسيس عصر التوحيد ، وبالتالي كان مستحيلاً عليه - والحالة هذه - أن يعطي الأهمية لأي شيءٍ آخر في حياته؛ ومن ثم نزل الوحي يخيّر زوجات الرسول بين أمرين لا ثالث لهما: إما مرافقته - عليه الصلاة والسلام - بالصبر والقناعة ، أو مفارقته بالمعروف والإحسان ، أما إحراج الرسول وتشتيت فكره بإثارة النزاعات العائلية ، فذلك ما لا يُحتمل بأي حالٍ من الأحوال !

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

يَقْنُتْ مِنكُنَّ : تطع أو تخضع منكن .

فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ : لا تلن القول ولا ترققنه للرجال .

إن نساء النبي كن يتمتعن بمكانةٍ شبه قيادية في المجتمع . والقيادة مسئولية باهظة التكاليف ، حيث يضطر أصحابها في سبيل الخضوع للحق إلى تقديم تضحية أكبر من الرجل العادي ، ولهذا السبب وعد الله تعالى أمثال هؤلاء بالأجر المضاعف ، فلئن كان هؤلاء يستخدمون للعمل قوة إراديةً أكثر بالقياس إلى غيرهم ، فإنهم يستحقون بالطبع أن ينالوا على أعمالهم جزاءً أكثر وأوفر من الآخرين .

وقد كانت نساء النبي ، لمكانتهن الخصوصية هذه ، يتكرر اتصال الآخرين بهن من حينٍ إلى حينٍ ، إذْ كان الناس كثيراً ما يختلفون إليهن للاستفسار في شتى الأمور الدينية .. ومن ثم أمرن بالتحدث إلى الآخرين بأسلوبٍ فيه شيء من الخشونة والجفاف، وليس بأسلوب يتسم بالرقة وعدم الكلفة كما يكون الحديث مع أحد الأقارب وذوي الأرحام!.

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ : الزمن بيوتكن وكذا جميع النساء .

وَلاَ تَبَرَّجْنَ :لا تبدين الزينة الواجب سترها .

الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى : ما كان قبل الإسلام من الجهالات .

الرِّجْسَ : الذنب أو الإثم أو النقص .

وَالْحِكْمَةِ : هدي النبوة أو أحكام القرآن .

في خطابٍ موجهٍ إلى أزواج الرسول يرشد الله تعالى هنا نساء المسلمين إلى كيفية معاشرتهن في البيوت ، فينبغي لهن – مبدئياً – أن يقرن في بيوتهن ، وألا يتخذن من التبرج والترفل في الحلل والحلي مقصدهن في الحياة كشأن النسوة الغارقات في حب الدنيا المبهورات بزخارفها ، بل يجب أن يكون مركز اهتمامهن أن يصبحن عابداتٍ لله حقاً ، باذلاتٍ أموالهن في سبيل الله بسخاءٍ ، ويبادرن إلى امتثال أمر الله ورسوله في كل شئون الحياة ، صغيرها وكبيرها ؛ وافق هواهن أو خالفه ، ويقضين معظم أوقاتهن في الاستماع إلى أحاديث الله ورسوله وتدبر معانيها ، وهذا أسلوب للحياة والمعاشرة يجعل مَنْ يتبعه إنساناً طاهراً وإنما الإنسان الطاهر هو الذي يحبه الله ويقع عند الله موقع الرضا والقبول!

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وَالْقَانِتِينَ : المطيعين الخاضعين لله .

هذه الآية الكريمة تبين لنا ما هي الصفات التي يريد الله أن يراها في الرجال أو

النساء، إنها الصفات العشر التالية : الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع، والتصدق ، والصيام ، والعفة ، وذكر الله .

وإن هذه الكلمات العشر لم تدع جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية والسلوك الإسلامي إلا احتوته ، وخلاصتها أن كل شخصٍ يرجو المغفرة والإنعام عند الله ؛ ينبغي له أن يجعل من نفسه خاضعاً لأمر الله ، وموقناً بالله ، وأن ينقطع بوجوده كله لله ، وأن تكون حياته خاليةً من التناقض بين القول والفعل ، ويكون صامداً ثابتاً على الحق في كل الظروف والأحوال ، وأن يكون الشعور بعظمة الله وجلاله قد جعله إنساناً متواضعاً ؛ فصار يعد حتى القيام بسد حاجات الآخرين جزءاً من مسئوليته ، ويهتم بالصيام الذي هو تربية لضبط النفس، وأن يكون عفيفاً طاهر الذيل في مواجهة الرغبات الشهوانية ، وأن تصير آناء ليله وأطراف نهاره عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى. وهذه الأوصاف كما هي مطلوبة من الرجال، مطلوبة من النساء كذلك ، ومع أن دائرة ممارسة هذه الأوصاف تختلف من جنسٍ إلى آخر من بعض النواحي ، إلا أن الأوصاف نفسها متماثلة لكلا الجنسين على حدٍ سواء ، فأيما امرأةٍ أو رجلٍ لن يعد عند الله جديراً بالقبول إلا إذا وصل إليه تعالى متحلياً بالصفات العشر المذكورة أعلاه !!

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

إن الإنسان خُلق مختاراً ؛ وهو مُطالب بتفويض اختياره هذا إلى الله. وذلك هو امتحان الإنسان الحقيقي في العالم الراهن. وإنما المهتدي إلى الصراط المستقيم حقاً هو الذي يجتاز هذا الامتحان الخطير بنجاحٍ .

ومن الأمثلة على ذلك : واقعة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش؛ فقد كان زيد عبداً مُعتقاً ، بينما كانت زينب - وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب - تنتمي إلى أسرةٍ عاليةٍ من قريشٍ. ولما خطبها رسول الله - ﷺ - على مولاه زيد ، لم يرض أفراد أسرتها بذلك ، حتى امتنعت زينب بنفسها قائلةً : "أنا خير منه نسباً" ، ولكن حين تُليت عليهم الآية القرآنية المذكورة ، أذعنوا من فورهم ؛ فتم زواجهما في العام الرابع من الهجرة، تلك هي طبيعة الإسلام ، وما أحراها أن تكون هي طبيعة كل مسلمٍ ومسلمة!

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وَطَراً : حاجته المهمة كناية عن الطلاق .

حَرَجٌ : ضيق أو إثم .

أَدْعِيَائِهِمْ : من تبنوهم قبل نسخ التبني .

تزوج زيد من السيدة زينب في السنة الرابعة من الهجرة ، ولكنهما كانا في حياتهما الزوجية كالتنوين والإضافة - إن جاز التعبير - فتعذر الوفاق بينهما ، مما أدى إلى الفصل بينهما في العام التالي ، ولما جاء زيد إلى رسول الله - ﷺ - يستأذنه في تطليق زوجته ، سأله عن السبب ، فأجاب قائلاً : "إنها تتعظم علي لشرفها"، بيد أن النبي لم يسمح له بذلك بادئ ذي بدءٍ وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ولكنه عندما تكررت شكواه ، وزاد إلحاحه ، أذن له آخر الأمر في أن يفارق زينب .

ومن خلال تزويج زينب من زيد كان قد تم القضاء أولاً على عادةٍ متأصلةٍ في

نفوس العرب ؛ قائمةٍ على دوافع العصبية وحدها ، وهي أن الفوارق الاجتماعية لا ينبغي أن تقف عقبةً في طريق النكاح والزواج ، وأما بعد أن وقع الفصل بينهما ، فقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الحادثة سبباً في تحطيم عادةٍ خاطئةٍ أخرى .

فمن عادات العرب في الجاهلية أنهم كانوا يعتدّون المتبني كالابن الصلبي تماماً ، وبالتالي كانوا يجرون عليه أحكامه حتى في الميراث وفي حرمة النسب والمصاهرة. ولهدم هذه العادة ربما لم تكن هناك من صورةٍ عمليةٍ أفضل من أن يتم تزويج زينب من رسول الله – ﷺ- بعد تطليق زيد إياها ، حيث كان زيد مولى رسول الله تبناه، حتى صار يُدعى زيد بن محمدٍ ، وفي هذه الحالة كان زواجه – عليه الصلاة والسلام – من زوجة متبنّاه ، بمثابة انفجارٍ ضد هذه العادة ؛ إذْ كانوا يعتقدون أن حليلة المتبني محرمة على الأب كحرمة حليلة ابنه الحقيقي .

وكان رسول الله – ﷺ- قد تم إعلامه مسبقاً بأن زينب ستدخل بعد أن يطلقها زيد في عداد أزواجه ، كوسيلةٍ لإبطال هذه العادة الجاهلية، وبما أن نكاحاً كهذا كان من شأنه أن يجعله عرضةً للطعن والتشويه في المجتمع القديم ، لذا فما زال رسول الله – ﷺ- ينصح زيداً بإمساك زوجه عليه ، عساه ، إن لم يطلقها ، أن يتخلص من هذه المحنة الشديدة ، بيد أن الأمر المقدر في العلم الإلهي لابد أن يتحقق ، لا يحول دونه شيء ؛ فلم يلبث زيد أن طلق زينب ، التي زُوِّجت بعد ذلك من النبي - ﷺ- في عام ٥ من الهجرة، كتدبيرٍ عمليٍ لنقض تلك العادة البالية من أساسها!!

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن

obeikandi.com

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فَرَضَ الله لَهُ : قسم له أو قدر أو أحل له .

خَلَوْا مِن قَبْلُ : مضوا من قبلك من الأنبياء .

قَدَراً مَّقْدُوراً : مرادا أزلا أو قضاء مقضيا .

حَسِيباً : محاسبا على الأعمال .

وعقب هذا الحادث ، وكما كان متوقعاً ، بدأت الدعايات المغرضة ضده - عليه الصلاة والسلام - على قدمٍ وساقٍ ، ودار على ألسنة الناس أن محمداً تزوج حليلة ابنه ، بينما تكون حليلة الابن حراماً على أبيه ، فقال تعالى رداً على تلك الأقاويل : إن محمداً لم يُرزق من الولد سوى البنات ، وإنه ليس أبا أحدٍ من الرجال ، أما زيد بن حارثة ، فإنما هو مولاه الذي تبناه ، ومتى كان المتبني ابناً حقيقياً ، حتى يكون الزواج من طليقته محرماً على من تبناه!؟.

ولِمَ تعرض - عليه الصلاة والسلام - في حياته لهذه التقلبات وأحداث المدّ والجزر، مع أنه كان رسول الله ؟!.

وجواب ذلك : أن الرسول مع كونه يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى إلا أنه ملزماً أن يعيش عيشة البشر العاديين ، فيواجهه في عالم الامتحان الراهن من الأحوال والظروف ما يواجه الآخرين عداه ، ولولا ذلك ، لم تكن حياة النبي حجةً على عامة البشر ، وهذا هو السر في أن التوجيه النبوي إنما يُقدم في قالب الظروف الحقيقية ، وليس في قالب الظروف الخيالية المصطنعة ..

إن خاتم النبيين يعني حرفياً: هو الذي ختمت به النبوات والرسالات السماوية ، وكلمة "الخاتم" لا ترد بمعنى الطابع (Stamp) ، بل بمعنى المهر أو الختم (Seal) ، أي

العملية الختامية ، وختم الغلاف معناه إغلاقه بصورةٍ نهائيةٍ لا يدخل إليه أو يخرج منه بعدها شيء ، ومن هنا تقول العرب : "خاتم القوم آخرهم" .

وإعلان كونه – عليه الصلاة والسلام – "خاتم النبيين" في سياق هذا الحادث ذاته ، إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنه إذا كان لا نبي بعده ، صار من الضروري أن يتم إظهار كل الأحكام الإلهية والتوجيهات الربانية عن طريقه – ﷺ !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أول النهار وآخره .

إن اعتناق الدين الحق ، لا سيما في بيئةٍ يسودها الدين الزائف المغشوش ، يكون دوماً أصعب الأعمال على الإطلاق ، مما يجعل أهل الإيمان تغمرهم أحياناً مشاعر التذمر والخيبة واليأس ، وليس هناك لتفادي هذا الوضع غير طريق واحدٍ ، ألا وهو تركيز الأنظار على الجانب الحلو الجميل الذي يكمن وراء المنغصات والمثبطات الظاهرة ..

الناس في الغالب يعيشون على الماديات ، أما المؤمن فإنه يُضطر إلى أن يعيش على الأفكار (Ideas) ، والعيش على مستوى الأفكار يعني أن يعيش المرء غارقاً في ذكر الله الدائم ، وتأخذ آذانه تلتقط همسات الملائكة غير المسموعة، وينظر إلى الاكتشاف الفكري الذي يتوصل إليه في صورة الهدف الصحيح ، ينظر إليه على أنه هو الشيء الأكبر في الحياة ، ويمتلئ قلبه رضاً وطمأنينةٍ بما سيفوز به في الآخرة مقابل الدنيا يضحي بها في سبيل الحق!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ
وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

إن "الشاهد"، و"المبشر"، و"النذير"، و"الداعي"، كلها كلمات تعبر عن جوانب مختلفةٍ لحقيقة واحدةٍ، ورسالة النبي تتلخص في إعلام الناس بحقيقة الحياة، وإخبارهم بأحوال الجنة والنار، وهذه مهمة دعوية، وعلى أساس هذه المهمة الدعوية ذاتها سوف يدلي النبي بشهادته أمام محكمة الآخرة على أولئك الذين أبلغ إليهم أمر الحق في الدنيا؛ فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَنْ كفر وناصبه العداء.

ورسالة النبي هي نفسها رسالة الأمة المسلمة كذلك، وفي هذا الطريق لابد من مواجهة شتى ألوان الأذى وضروب الإساءة من قبل الناس؛ فقد لا يخرج من بينهم نصير واحد للحق، وقد يقف بعضهم إلى جانبه ويناصره لبعض الوقت، ثم لا يلبث أن يتخلى عنه وينسحب هو الآخر مردداً بعض الألفاظ الكاذبة. وفي مثل هذه الأحوال فإن التوكل على الله وحده، هو العامل الوحيد الذي سن شأنه أن يُثبت أقدام النبي – أو الدعاة السائرين على هداه – على العمل الدعوي، فالصبر على أذى الناس والإعراض عن إساءاتهم، والتوجه الدائم إلى الله على كل حالٍ، هما رأس مال العاملين في مجال الدعوة الإسلامية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن
تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

سَرَاحاً جَمِيلاً: عاريا عن أذى ومنع واجب.

يتزوج رجل من امرأةٍ ، ثم يطلقها قبل المساس أو الاتصال الزوجي ، فلا تجب العدة في هذه الحالة كما هو الشأن في حالات الطلاق العادية على أن من مقتضى الخلق الإسلامي أن تجري عملية التفريق بين الزوجين على نحوٍ مهذبٍ شريفٍ تماماً كما جرت به عملية الاقتران بينهما ، فلئن كانت المرأة قد فرض لها مهر ، فعلى الزوج أن يدفع إليها نصف المهر المفروض ، وألا يودعها بإحسانٍ بعد أن يمتّعها بشيءٍ حسب سعته ووفقاً للعرف السائد ، وللمرأة - إذا شاءت - حق في أن تتزوج بعد ذلك من أي رجلٍ آخر على الفور ؛ حيث إنها غير ملزمةٍ في هذه الحالة بقضاء العدة كما تقدم!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾

آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ: أعطيتهن مهورهن .

أَفَاءَ الله عَلَيْكَ : رجعه إليك من الغنيمة .

لقد حُصر عدد الزوجات ، بالنسبة إلى عامة المسلمين ، في أربع لا يحل تجاوزه ، غير أن النبي - ﷺ - لم يكن ملزماً بهذا القيد ، حيث تزوج - عليه الصلاة والسلام - بإذنٍ خصوصيٍ من الله - سبحانه وتعالى - بأكثر من أربع نسوةٍ . وقد كانت الحكمة من ذلك ألا يكون على الرسول أي نوعٍ من الحرج أو المشقة .

والمراد بالمشقة هو المشقة في أداء المهمة النبوية ، فبالنظر إلى شتى الأغراض الدعوية والمقتضيات الإصلاحية والتعليمية كان رسول الله - ﷺ - يشعر بالحاجة إلى التزوج

بعددٍ أكثر من النساء ، وبناءً على هذه المصلحة الدينية ، لم يوجب الله عليه الاكتفاء بالأربع كما أوجبه على المؤمنين ، وعلى سبيل المثال فقد كانت الحكمة من زواجه بالسيدة عائشة أن تكون بصحبته الدائمة امرأة صغيرة السن حادة الذكاء قوية الحافظة لكي تقوم بعده – عليه الصلاة والسلام – بتعليم الناس أمور دينهم لمدةٍ طويلةٍ من الزمان ، ولقد ظلت السيدة عائشة بالفعل ، بعد وفاته – ﷺ – نصف قرنٍ تقريباً ، تنقل للأمة أقواله وأخباره وأفعاله المنزلية كشريطٍ مسجل حيٍ ، كما نتج عن زواجه من السيدتين أم سلمة وأم حبيبة أن انتهت خصومة خالد بن الوليد وأبي سفيان بن حرب وخمدت عداوتهما لرسول الإسلام والمؤمنين به إلى الأبد ... وما إلى ذلك .

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

تُرْجِي : تؤخر ولا تضاجع .

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ : تضم إليك وتضاجع .

ابْتَغَيْتَ : طلبت .

عَزَلْتَ : اجتنبت بالإرجاء.

رَقِيباً : حفيظا ومطلعا .

يكثر إمكان التخاصم أو التظالم إلى حدٍ بعيدٍ حيث يتعلق الأمر بأكثر من امرأةٍ ،

ولقد كانت تحت رسول الله - ﷺ - عدة نساءٍ ، وكان من المحذور ، بناءً على ذلك ، أن تشكو زوجاته من عدم التسوية بينهن في حقوق الزوجية ، وبالتالي لا يتمكن - ﷺ - من التفرغ لأداء مهمته الدينية والقيام بأعبائها على أحسن وجهٍ وأكمله ، ومن ثم أعلن الله - سبحانه وتعالى - مقرراً أن أمر النبي أمر خصوصي ، وهو غير ملزمٍ كآحاد المسلمين بالتسوية بين الأزواج ، فإذا ما تعارضت حقوق الزوجية مع حقوق الإسلام، جاز للنبي أن يفضل الأخيرة على الأولى ، وقد كان الغرض من استثناء الرسول - ﷺ - من القاعدة العامة: الحيلولة دون تولّد العقلية الاحتجاجية في زوجاته الطاهرات.. بيد أن الرسول - ﷺ - لم يستعمل هذا التخيير عملياً إلا في القليل النادر!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ : غير منتظرين نضجه واستواءه .

فَانتَشِرُوا : فتفرقوا ولا تمكثوا عنده.

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً : حاجة ينتفع بها .

في معرض بيان الأحكام الخاصة برسول الله - ﷺ - تم إرشاد المسلمين هنا إلى

آدابٍ ساميــةٍ لابـد مـن مراعاتهـا في حيـاتهم الاجتماعيـة ، فيجـب ألا يـدخلوا بيـوت الآخـرين إلا بعـد الاسـتئذان ، وإذا دعـاهم أحـد لتنـاول الطعـام في منزلـه أو لأي غرضٍ آخر ، فلا يطيلوا المكث عنده إلا بقدر الحاجة ، وليعودوا أدراجهم فور تفرغهم من ذلك ، وليجتنبوا الخوض في الأحاديث غير الضرورية فيما إذا توجهوا لزيارة بعض إخوانهم ، وإن كان الأمر يتعلق بالنساء ، فليؤدوه من وراء حاجزٍ وحجابٍ .. إلخ.

وفي الحياة الاجتماعية ينبغي على كل فردٍ ألا يضع نصب عينه مجرد رغبته أو حاجته الذاتية وحدها ، بل عليه أن يأخذ في اعتباره دائماً ألا يتسبب سلوكه في إلحاق الأذى أو الضرر بغيره ، ولا تكون أحاديثه غير الضرورية مضيعة لأوقات أخيه الثمينة!!.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

كـان الرجـال ، بموجـب الآيـة السابقة (٥٣) قـد نُهـوا عـن مخاطبـة أزواج الرسـول مباشرةً - أي وجهاً لوجهٍ - وأمروا بالتحدث إليهن من وراء حـاجزٍ وحجـابٍ ، وقـد جاءت هذه الآية (٥٥) تستثني المحارم من الرجال والنساء من وجوب الاحتجاب من بعضهم ، وسيندرج تحت قائمة الأقارب المذكورين هنا تلك القرابات التي تـدخل في حكمهم، وهذا التوجيه القرآني قد سبق ذكره بمزيـدٍ مـن التفـصيل في الآيـة (٣١) مـن سورة النور .

وخلاصة كل الأحكام الشرعية هي: أن كل إنسانٍ - ذكراً كـان أو أنثى - يجـب أن يكـون قلبـه مفعـماً بخـوف الله وتقـواه ، ويـمارس حياتـه آخـذاً في حـسبانه أن الله - عـز وجل- يراقبه كل حينٍ وآنٍ !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ
وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ
فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ : يثنون عليه بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﷺ .

بُهْتَاناً : فعلا شنيعاً أو كذباً فظيعا .

لقد بُعث رسول الله – ﷺ – لإظهار دين الله في هذا العالم، وإن العبد الذي ينهض لعملٍ مقدسٍ كهذا – يحظى ولا ريب – بتأييد كاملٍ شاملٍ من الله وملائكته ، وبالتالي يكون مسايرته مسايرةً لله وملائكته، والإعراض عنه إعراضاً عن الله وملائكته .

وإن الذين تناولوا رسول الله بصنوف الأذى ، كان في حسبانهم أنهم إنما يؤذون أحد البشر، وغاب عنهم أنهم يؤذون في الواقع ممثل الله، والذين يتناولون ممثل الله بالأذى ، فإنما يجعلون من أنفسهم ملعونين عند مالك الكون إلى أبد الآبدين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن
جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ
يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ
ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا
﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

كيف تخرج المرأة المسلمة ، فيما إذا ألجأتها الضرورة إلى الخروج من بيتها ؟ ينبغي لها أن تخرج وهي مرتدية لباساً سابغاً يكون في ذاته إعلاناً صامتاً بأنها امرأة نبيلة ومتعفّفة، وأنها إنما خرجت لغرضٍ جادٍ وليس للتسلية ، وإن المشية الوقورة المحتشمة ، وكون البدن مغطى بالملحفة أو البرقع لمن علامات تلك الجدية والاحتشام والوقار ، والحقيقة هي أن المرأة إذا ما خرجت سافرةً متبرجة فكأنها تدعو الآخرين إلى التلفت نحوها وتعقبها بالنظرات الجارحة والتعليقات الماجنة . وأما إذا خرجت غير سافرة ولا متبرجةٍ فكأنما تقول للآخرين بلسان حالها : إنما أنا خرجت لأمرٍ يهمني ، وليس لي معكم من شأنٍ !!

ولعل المراد بـ"مرضى القلوب" هنا هم اليهود، إذْ أنهم هم الذين كانوا كثيراً ما يؤذون المسلمين والمسلمات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وهم الذين كانوا قد قُتلوا أو تم نفيهم عن المدينة وضواحيها وفق التحذير المذكور أعلاه!!

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾
رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

إن السؤال عن وقت قيام الساعة على التحديد لا يعني أنهم لم يكونوا مؤمنين بقيام الساعة أصلاً، فالواقع أنه لم يكن استهزاءً بالقيامة ، بل بالذي جاء يخبر عن القيامة وينذر من أهوالها . إنهم لم يكونوا منكرين للقيامة في ظاهر الأمر ، وإنما منكرين لنوعية القيامة تلك،التي كان ينبئهم بها رسول الله وأصحابه .

وكان خطؤهم الحقيقي يكمن في أنهم قد اعتبروا رؤساء قومهم كبراء ، ولم يعتبروا الرسول كبيراً ؛ مما جعلهم يعدون حديث كبرائهم القوميين جديراً بالاعتبار ، ويعدون حديث الرسول غير ذي قيمةٍ ولا جدير بالاعتبار ، ومن ثم فحين تنكشف عليهم الحقيقة يوم القيامة ، يندمون أشد الندم قائلين : يا ليتنا أدركنا الفرق بين الكبرياء الزائف والكبرياء الصادق ، ولم نكن قد ضللنا وانحرفنا عن السبيل منخدعين ببريق الكبرياء الزائف !!

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

وَجِيهاً : ذا جاه وقدر مستجاب الدعوة .

قَوْلاً سَدِيداً : صواباً أو صدقاً أو قاصدا إلى الحق .

ما المراد بالنهي عن إيذاء "الرسول كاليهود الذين آذوا رسولهم موسى" ؟

يمكننا أن نفهم ذلك في ضوء واقعةٍ رواها الإمام أحمد ، نقلاً عن عبد الله بن مسعود قال : "قسم رسول الله – ﷺ – ذات يومٍ بين الناس مالاً ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة" ، ولما ذُكر ذلك للنبي – ﷺ – قال : "رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" [١].

الكلام نوعان ، سديد وغير سديدٍ . أما الكلام السديد فهو الذي يطابق الحقيقة كل المطابقة ، والذي يكون مبنياً على التحليل الواقعي ، مصحوباً بالدلائل القوية الصلبة، وأما الكلام غير السديد فهو – بالعكس – الكلام الذي لا يراعي الحقيقة ، وإنما يقوم على أساسٍ من الظن والتخمين ، والذي لا يعدو كونه رأياً ارتآه صاحبه ، دون أن يكون تعبيراً عن الحقيقة الواقعة . إن النوع الأول هو كلام المؤمن ، والنوع الأخير هو كلام المنافق !!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

عَرَضْنَا الأَمَانَةَ : التكاليف من أوامر ونواهٍ .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص١١٦.

فَأَبَيْنَ : امتنعن .

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا : خفن من الخيانة فيها .

المقصود بالأمانة: الاختيار. وإنما عبر عن الاختيار بلفظ الأمانة؛لأنه وديعة من الله خوّلها إلى الإنسان على سبيل الابتلاء لفترةٍ محدودةٍ من الزمان؛حتى يأخذ الإنسان نفسه بطاعة الله تعالى بمحض إرادته،والأمانة، بمعنى آخر،هي أن نقوم على أنفسنا ونتعهدها كنائبين عن الله،فنفعل بها ما يفعل الله بالنجوم والكواكب وسائر موجودات هذا الكون الفسيح، أي نخضع أنفسنا بإرادتنا واختيارنا لسيطرة الله المطلقة.

لا حاكم في هذا الكون إلا الله، وكل ما عداه محكوم ، ولكن شاءت إرادة الله – سبحانه وتعالى – أن يخلق كائناً حراً يمتثل لأمر خالقه باختياره الذاتي ، وبدون أي قهرٍ أو إجبارٍ خارجي . وقد كانت هذه الطاعة الاختيارية بلاءً جد عظيم؛عجز عن تحمل أعبائها حتى السماوات والأرض والجبال،ولكن الإنسان أخذها على عاتقه رغم خطرها الشديد. وقد صار الإنسان بذلك أميناً على أمانة إلهيةٍ في هذه الأرض. وهو الآن مطالب بأن يفعل بنفسه ما يفعله الله بالأشياء الأخرى . وهو مكلف بتنفيذ أحكام الله على نفسه بنفسه. إن الإنسان في حالة امتحانٍ،وهذا العالم الراهن هو بالنسبة إليه قاعة الامتحان الفسيحة.

وهذه الأمانة مسئولية جسيمة بالغة الخطورة ؛ لأنها مناط التكليف ، وعليها تترتب مسألة الثواب والعقاب ، وبما أن المخلوقات الأخرى مجبورة مقهورة ، لا تواجهها مسألة الثواب والعقاب . أما الإنسان فلكونه مختاراً حر التصرف يستحق الثواب أو العقاب بحسب عمله.

opeikanal.com

وقد رُوي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه لما سأل الله آدم - وقد عرض عليه الأمانة بعد عرضها على السموات والأرض والجبال وإبائهن عن حملها - قائلاً : "هل أنت آخذ بما فيها"؟ ، قال آدم : "يا رب وما فيها"؟ ، قال : "إن أحسنت جُزيتَ ، وإن أسأت عُوقبتَ" !! (١).

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، ٣ / ١١٧.

obeikandl.com